قصَّة صالح

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

رَبِّ أَعِنِّي

ثمود خلفاء عاد:

أورث الله هذه الأرض لقوم ثمود المؤمنين بعد أن أباد قوم عاد الكافرين، على أن يعمروا الأرض ويوحِّدوه.

وكان قوم ثمود أول أمرهم مؤمنين موحِّدين طائعين لله، فعمروا الأرض بعد أن أسكنهم الله أرضاً كلُّها خيرات، مليئة بالماء الذي أفاض على أرضهم الخير. فكانوا يزرعون، ويأكلون من رزق الله، الذي أنبت لهم الجنَّات، والبساتين، والشجر ليأكلوا من ثمرها.

وعملوا في البناء، حتى صارت لهم حضارة عظيمة. فكانوا يبنون القصور في السهول الخصبة. ولم يكتفوا بذلك؛ بل إنهم أنشأوا البيوت في الجبال، فكانوا ينحتون الصخر ويبيتون في تلك البيوت لمتانتها. ورغم هذا العمل الهائل مع قلة المعدَّات المتاحة في تلك الأيام، فقد تغلَّبوا على المصاعب، ونحتوها بعون الله ومشيئته.

وبدلاً من أن يشكروا الله على ما أعطاهم من النِّعم، عاثوا في الأرض الفساد، وعبدوا الأصنام، بعد أن صنعوها بأيديهم بوحي من إبليس لعنه الله.

وأراد الله الكريم أن يمُنَّ على هؤلاء، لعلَّهم يعودون إلى الصراط المستقيم وينبذون عبادة الأصنام. فأرسل إليهم رسولاً من أنفسهم

يخاطبهم بلسانهم لتكون المخاطبة أسهل عليهم. فربما يرجعون عن الفساد في الأرض ويعودون إلى التوحيد.

فابتدأ بتذكيرهم بنعم الله عليهم إذ جعلهم مستخلفين في الأرض من بعد عاد وذكرهم بهذه الحضارة التي منَّ الله بها عليهم. ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74].

ومساكن ثمود عرفت بمدائن صالح نسبة إلى نبيِّهم، وتقع بين بلاد الحجاز وبلاد الشام.

وهناك سورة في القرآن الكريم تحمل اسم سورة «الحجر» وهي مساكن قبيلة ثمود. ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر: 80-82].

صالح يدعو قومه:

نبيُّ الله صالح يعود بنسبه إلى ثمود جدُّ القبيلة التي سميت باسمه. وثمود الجد يعود بنسبه إلى إرم بن سام بن نوح.

ونشأ صالح في قبيلته نشأة صالحة وهو من أوسط القبيلة نسباً وأفضلهم حسباً. وامتاز منذ نعومة أظفاره بالصدق، فنشأ على الفضيلة والإحسان. كما تميَّز بالحلم والعلم والورع والتقوى وسائر الصفات الحميدة، وحباه المولى بالحكمة والإصابة بالرأي الصائب. فكان قومه حينما يحتاجون إلى رأي صائب في مسألة ما، يلجأون إليه ويأخذون برأيه.

ولما طغت قبيلته ثمود ونشروا الفساد في الأرض، وفشت فيهم عبادة الأصنام، أوحى الله إلى نبيِّه صالح أن يدعو قومه للعودة إلى صراط الله المستقيم وتوحيد الله، ونبذ عبادة الأصنام، وشكر الله على ما أنعم عليهم من خيرات، وما أمدَّهم به من قوة.

وابتدأ صالح بتنفيذ أمر ربه، ودعا قومه لِما أُمِرَ له. فآمن معه عدد قليل من قومه، وأكثرهم من الضعفاء والفقراء.

أما الأغنياء والزعماء وأصحاب المناصب، فقد كفروا بدعوة صالح خوفاً من أن يسود عليهم ويرأسهم.

ومن الطبيعيِّ أن من يدلُّهم على الخالق وتوحيده، عليه أن يكون القائد في قومه، يرشدهم ويهديهم إلى سواء السبيل. وخوفاً من تفلُّت الزعامة والمناصب من أيديهم ظلموا أنفسهم ولم يستمعوا إلى دعوة نبيهم.

ولم يكتفوا بذلك؛ بل دعوا الناس العاديِّين إلى عدم السماع لدعوته خوفاً من أن يفقدوا جمهورهم.

وكانت تدور بين المؤمنين والكافرين حوارات حول دعوة صالح، وهل هو نبيٌّ مرسل من عند الله أم لا؟!

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: 75-76].

بعد ذلك عمد الكافرون إلى أسلوب آخر مع صالح، فذهبوا إلى تذكيره بصفاته التي كانت ذا شأن عندهم قبل البدء بالدعوة و﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ

قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا[1] قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ[2]﴾ [هود: 62].

فما كان جوابه إلاَّ أن قال لهم: بأنه مأمور من الله بهذه الدعوة، ويخاف عصيانه بعد أن رأى البرهان على وحدانيَّته، وبعد أن تفكَّر في هذا الكون العجيب المحكم المتوازن الذي لا يقوى على خلقه إلا الله. وأنَّ الباري سبحانه رحمه من عنده فكيف يعصيه، وأنه يخاف إن عصاه عذاب يوم عظيم - أي يوم القيامة - بعد أن رحمه وهداه وأمره بهداية قومه.

وكان يقول: إن لم تؤمنوا فإني أخاف عليكم من عذاب النار التي أعدَّت للكافرين. ومن الأجدر بكم أن تعودوا إلى عبادة الله الذي أنشأكم من الأرض، ومنحكم من القوى الجسديَّة والعقليَّة ما مكَّنكم من عمرانها.

ودعا قومه إلى استغفار الله مما لحق بهم من ذنوب، ودعاهم إلى التوبة، لأن الله قريب مجيب لمن دعاه. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 61].

وقال لقومه: إنه لا يريد أجراً على دعوته شأن الأنبياء جميعاً وإنما يبتغي أجره من الله.

الناقة:

لما طال الحوار بين نبيِّ الله صالح وقومه، طلب هؤلاء الحجَّة

(1) مرجوًا: محترماً وذا مكانة عالية.
(2) مريب: الشك.

والبرهان على صدق دعواه و﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ [1] ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: 153-154].

ساعتئذٍ قال لهم بعدما أوحى الله إليه بأنه سيؤيِّده بمعجزة خارقة للعادة ، قال لقومه: إن ربي قريب مجيب الدعاء يستجيب دعوة الداع إذا دعاه عندما يأذن بذلك. وإنَّما هذه الأصنام التي تدعونها وتعبدونها لا تنفع ولا تضرُّ، حتى إنَّها لا تستطيع أن تدفع عن نفسها أيّ سوءٍ إذا ما تعرَّضت له، فكيف تستجيب لكم.

ورغم ذلك قالوا له: إنَّهم سيذهبون معه يوم عيدهم ويدعون أصنامهم، فإن استجابت لهم لم يؤمنوا بما جاء به صالح، وإن لم يستجيبوا لهم، فإنَّ صالح يدعو ربه بأن يؤيِّده بمعجزة، فإن استجاب له ورأوا آية ربه وتأييده له في صدق دعواه آمنوا عن آخرهم.

وذهب الجميع، إلى موضع الأصنام وبدأوا بالدعاء. ولكن هل تسمع الأحجار وهل تستجيب؟!

بالطبع لا، وهنا كانت خيبتهم. وانتظروا ما يكون من أمر صالح، بعد أن قال لهم بلهجة المؤمن، الواثق بنصر ربِّه له، والمُؤَيَّد من عند الرحمٰن: ماذا تريدون أن تكون آيةَ ربكم؟

فقالوا له: إن كنت صادقاً فادع ربَّك لأن تخرج من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة كبيرة كانت في ذلك الموضع - ناقة كبيرة تكون أكبر من سائر النوق[2] وأن تكون حاملاً.

---

(1) المسحَّرين: المرضى الذين فقدوا عقولهم.

(2) النوق: جمع ناقة، وهي أنثى الجمل .

وما طلبهم هذا إلا ليضعوا نبيَّ الله في موقف حرج بزعمهم، لأن النوق عادة تتوالد من بعضها البعض وحجمها يكون طبيعيًا على ما اعتادوا. فكيف يأتي بناقة كبيرة الحجم، وتُخْلَقُ من الصخر.

وقال لهم نبيُّهم: إنه سيأتي بما أرادوا بإذن الله ولكن هناك شروط لذلك، وهي:

1 - أن لا يتعرَّضوا لها في طعامها.

2 - أن لا يتعرَّضوا لها في شرابها، وذلك بأن يكون لها شرب يوم من البئر لا يقربوا الماء فيه، ولهم شرب يوم لا تقرب هي الماء فيه بوحي من الله لأنَّها مأمورة بذلك.

3 - أن لا يمسُّوها بسوء، فيأخذهم العذاب ويقضي عليهم ربُّهم.

وما إن توجه صالح إلى الله بالدعاء، حتى كانت المعجزة الخارقة التي لا يقف في وجهها أحد إذا ما أرادها الخالق. وهو الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وطلب صالح من الله، أن تخرج من الصخرة الناقة التي يتخيَّلونها.

وكانت المفاجأة التي أدهشتهم جميعاً. وهي أنه ما إن انتهى صالح من دعائه إلى الله، حتى راعهم ما سمعوا ورأوا. حيث بدأت الصخرة التي أشاروا إليها تتحرك لتخرج من داخلها ناقة كبيرة وضخمة جدًا لم يروا مثلها من قبل، وفي بطنها مولود كما طلبوا.

فخرجت من الصخرة ووضعت وليدها. قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: 64].

كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: 28]. وقال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: 155].

وآمن عدد كبير من القوم، وأخبروا الباقين عندما لَقَوْهُمْ، بخبر معجزة صالح. ولكن بعد ذلك، ارتدَّ عدد كبير منهم عن دين الله، وجحدوا بنعم الله عليهم.

ودخلت الناقة المعجزة في حياتهم. وبدأت ترد الماء، وتشرب من البئر، حتى أن ماءه كانت ترتفع إليها بإذن الله، فتشرب الماء كله ولم تبق فيه قطرة.

وفي اليوم التالي كانت الناقة تذهب ولا تأتي إلى موضع البئر. فيأتي الناس يشربون، ويخزنون الماء في بيوتهم ودورهم لليوم التالي، لأن الناقة ستأتي وتشرب جميع الماء.

ومن لطف الله بعباده، أنَّه في اليوم الذي تشرب فيه الناقة، وبعد أن ترتوي من ماء البئر كانت تقف في البلدة، ويأتيها الناس فيحلبونها. وكان جميع من في القرية يأتي إليها ويحلبها ويشرب من لبنها.

وكان المؤمنون بدعوة صالح قد سرُّوا بها لأنَّها من عند الله ومعجزة بَيِّنة لنبيهم.

أما الكافرون فقد ضاقوا بمن آمن من قومهم وبالناقة ذرعاً، خاصَّة عندما كانت تذهب لتأكل. فلضخامتها كانت مواشيهم حينما تراها تهرب وتخاف منها.

فضاق الكافرون ذرعاً بهذا الوضع وقرَّروا التخلُّص من الناقة. وكان

صالح قد أنذر قومه إن مسُّوها بسوء، فسيلحقهم العذاب ويهلكهم الله.

ولكنَّهم لم يبالوا لقول صالح وقرَّروا التخلص منها. وجاء تسعة من الكافرين وكمنوا للناقة وعقروها، فأصبحوا نادمين.

أما فصيلُها[1]، فقيل: إنهم لحقوا به فقتلوه.

وفي رواية أخرى إنه هرب منهم ودخل الصخرة التي خرجت منها أمه. والله أعلم.

ولم يكتف قوم ثمود بذلك، بل كمنوا لقتل صالح أيضاً، وقال بعضهم لبعض: اقسموا أن نأتي صالح وأهل بيته المؤمنين ونقتلهم جميعاً، ثم نُنكر ذلك. ونقول: لا ندري من قتلهم، ولا نعلم من فعل ذلك.

وتآمروا على تنفيذ ما عقدوا النيَّة عليه في مشروع القتل هذا. ولكنَّ الله أهلكهم جميعاً، قبل أن يمسُّوا شعرة من نبيِّه.

انظر إلى قوله تعالى:

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: 48-53].

---

(1) فصيلها: وليدها.

العذاب:

وعندما علم صالح بمكرهم وفعلهم قال لقوم ثمود الكافرين: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ثم يأتيكم عذاب الله. ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: 65].

وآية ذلك أنَّه في اليوم الأول: تكون وجوهكم مصفرَّة، وفي اليوم الثاني: تكون وجوهكم محمرَّة، وفي اليوم الثالث: تكون وجوهكم مسودَّة.

وتحقق كلام نبيِّهم ونظروا إلى بعضهم في اليوم الأول، فكانوا يرون وجوههم جميعاً مصفرَّة. فأخذهم الخوف من صدق كلام صالح. وانتظروا إلى اليوم الثاني فأصبحت وجوههم محمرَّة. فأصابهم الهلع وعلا صياحهم ونحيبهم، وفي اليوم الثالث أيقنوا الهلاك الآتي من ربِّهم، فأصبحوا ووجوههم مسودَّة. فتكفَّنوا ونظروا إلى بعضهم بعضاً، ونظروا إلى السماء حيناً وإلى الأرض أحياناً حتى جاءتهم صيحة جبريل فَصَعِقُوا عن آخرهم. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ[1] فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ[2]﴾ [الأعراف: 91]، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود: 67-68].

فهلك الجميع إلا امرأة كافرة كانت مقعدة لا تمشي. ومن هول ما رأت، أطلق الله رجليها بالحركة، فركضت مسرعة حتى وصلت إلى

---

(1) الرجفة: الزلزلة.

(2) جاثمين: ساقطين على وجوههم.

وادي القرى بين الحجاز والشام، فأخبرت من رأت بما حصل لقومها، ثم شربت شربة ماء وماتت.

أما صالح ومن آمن معه فقد أنجاهم الله بعد أن أهلك قومهم وذهبوا برفقة نبيِّهم يعبدون الله لا يشركون به شيئاً. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: 66].

وقيل: إن رسول الله ﷺ مرّ بالحجر[1] في غزوة تبوك بعدد من الصحابة، وأمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنا واستقينا، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهرقوا الماء، وأن يطرحوا ذلك العجين للداجن من المواشي. ونهى عن القرب من ذلك المكان، لأنَّه مكان نزل فيه العذاب على قوم كافرين.

العبر من قصة صالح:

يؤخذ من قصة صالح عدة عِبَرٍ، منها:

1 - إنَّ الحضارة التي لا يسندها الإيمان ويقوِّيها تزول ولا يبقى لها أثر فعلي كحضارة ثمود.

2 - الداعي إلى الله يجب أن يتحلَّى بالصدق والأمانة ولين الجانب والصبر على المكاره كما صبر صالح على قومه.

---

(1) الحجر: مساكن ثمود.

3 - يؤيِّد الله أنبياءه بمعجزات تدلُّ على صدقهم، وتفضح كذب مخالفيهم . ومن هذا ناقة صالح، وما كان فيها من آيات.

4 - الذين لم يلتفتوا إلى دعوة الأنبياء والرسل لهم الخزي في الدنيا والآخرة، كهلاك ثمود حينما لم يلتفتوا إلى نبيِّهم وعقروا الناقة، وتركوا الحضارة والنعم التي أمدَّهم الله تبارك وتعالى بها.

5 - عدم القرب من موطن نزل فيه العذاب على أمَّة من الأمم، كنهي رسول الله ﷺ عن إتيان المكان الذي نزل به العذاب لقوم ثمود عندما مرَّ بالصحابة بقرب ذلك الموضع.